نرى الكون في حبة رمل، ونبني مكاناً للعدم

● عكرمة غرايبة

اليقظة شيء ضد الحياة المعتادة، التي هي النوم، هي القطيع، هي المعتاد والمألوف، ولكن هل نملك أن نستيقظ؟ وكيف؟. هل سنستيقظ ونرى كم هو مدهش هذا العالم ! ونقف على أصغر التفاصيل وأصغر الموجودات، فتنفطر من عيوننا دموع الدهشة، والشعور بالإعجاز، ونرى الله في كل شيء، ونكون حضوراً دائماً، وشهودا.

كيف سيستطيع هذا من كان أسيرا ؟ أسير الجهات الست ؟ وأسير دقّات الساعة ؟ هل ثمة أمل بأن نُحطِّم هذا السجن؟ سجن هذا الكون، ونعيش تلك اللحظة الخالدة، تلك الأبدية التي تسكن أعماقنا .

وحتى نكتشف حقيقة الأشياء يجب أن نقترب منها، أن نلمسها، نبتعد عنها ثم نقترب. وهكذا، هذا إذا امتلكنا الجرأة لنفكر بمصيرنا بمعزل عن الوضع الذي وجدنا أنفسنا به أو الطبقة أو المكان، فالمصير هو قرار فردي نتخذه نحن، وبهذا نبدأ بعملية خلق لذات حقيقية من خلال الفعل الداخلي والخارجي لكي نضمن أننا سنبقى موصولين مع عالمنا الموضوعي، وأن هذا العالم هو مختبر الذات، يقول لاوتسي: « أنت تصنع الجرَّة، لكنك تريد العدم أو الفراغ داخلها، وتصنع الجدار وتفرغه لكي تُوجِد الباب أو الشباك، فالعدم هو الذي يعطي للوجود صلاحية الاستعمال، ونصنع العجلة ولكن بدون الفراغ الذي وسطها لن نتمكن من استعمالها.

إذا كان الخلْق منسوجاً من الوجود والعدم، والحياة والموت، فينبغي أن لا نصبح أسرى جانب دون جانب، فبدون العدم لن يتمكن الوجود من تحقيق مآربه، ولن يكون ثمة صلاحية للوجود بدون العدم، يقول حسن فتحي: «إن الفنان المسلم كان يتعامل مع الفراغ ويقوم بنحته، ويحيطه بجسد يسمى المبنى، فالمبنى ليس أكثر من قشرة تحتضن الفضاء، أو أننا نأخذ قطعة من هذا الفراغ الهائل لنستخدمها في مصالحنا الخاصة، كما أننا نأسر قليلاً من الفراغ من خلال الجرّة حتى نستطيع أن نستخدمها أو أن نملأها بالماء بين الفينة والأخرى»

ولكن هل حصلنا على قليل من الفراغ أو العدم أو المجهول لحياتنا؟ ليصبح ثمة إمكانية لصلاحية استعمال وجودنا الخاص، ليكون ذا معنى، وأن يكون هناك أيّ زاوية فارغة تنتظر بذرة مجهولة تحملها الريح، وليس مصمتاً، غلقاً.

عمان ،الأردن

إن الذات الإنسانية عندما تكون متحررة، تملك مال الدنيا كلها، ولكنها ليست أسيرة له، وتستطيع أن ترميه مرة واحدة، كما يقول محمد إقبال «أن يَكون للذات عرش وملك ولكنها فقيرة لله»، فهل ثمة فكرة ثورية أكثر من هذا، هذه الذات التي ليست أسيرة لشيء « أنت حرٌّ مما أنت آيسٌ منه، عبد لما أنت طامعٌ به». هذه الذات لن يكون ثمة أمل لجهة ما بأسرها أو باستعبادها أو شرائها، إذ هذه الذات تحقق وجودها من خلال البذل والفقد، والفقد ليس يُعطى.

تلك هي حقيقة الفكرة المعمارية، فلن يكون هناك بناء أو بيت صالح بدون ذلك العدم الذي يسكنه، هو بيت لأنه يحتوي على الفراغ، أو لأنه استطاع أن يُدجِّن العدم، الذي هو لُحْمَة هذا الكون، نختزل البحر بقطرة، ونرى الكون في حبة رمل، ونبني مكاناً للعدم، بدون هذا سنكون غلقا ومصمتاً، بلا فائدة، لذا علينا أن نرمي كثيرا من الأشياء خارجنا، لكي نُبقي على العدم، الفراغ،

البيت، السكن.

كيف نعطي للفراغ وجوداً مشخصاً، فردياً يشعرنا بحضوره ؟ ونشعر بقيمته؟ كيف نحافظ على جِدَّته وثرائه الحقيقي، المتجدد الذي لاينضب ؟ كيف يكون أكبر من مجرد نتيجه منطقية لجدران متقاطعة وفقيرة ؟ كيف يبقى معادلاً حقيقياً لكل الممكنات، ويحتمل كل ما نفكر به ؟.بل يعبث بكل منطقنا من خلال اقترابه من تحقق ممكن ثم يُولِّي هارباً، يبقى في تلك المنطقة الغسقية بين الظل والنور، يحمل كل التوتر الكامن، وكل قلق التحقّق.

المعماري يحتاج كل هذه الخلاقية، والخيال والاتساخ بالواقع مع هاجس الطهارة والتعالي، وفي البداية ينبغي أن نعترف صراحة أن المعماريين أسلموا كل مقدرتهم وخيالهم لرغبات المترفين والأغنياء وشهواتهم ونزواتهم ، ولم يبذلوا جهودهم إلاّ لمجاملة غرائز هؤلاء الناس، فاضطروا أن يمسخوا أنفسهم ويغرقوا بنزوات هؤلاء، ويغرقوا بتجارب شكليّة، والارتكاز إلى الغنى الظاهري والأشياء الثمينة والمُكلفة، ولم يفكروا بذلك العمق وتلك القدرة الإبداعية لخلق تلك الروح الجديدة التي من الممكن أن تكون أنزيم الخلق للتسريع بوجودها من خلال حوار عميق مع الماضي والناس بمجموعهم والمادة، وأن نكون شرارة الخلق.

المعماريون اليوم ليسوا أكثر من (ألبرت سبير) صديق هتلر، مجرد أداة لخدمة فرد دكتاتور أو طبقة مترفة، لذلك أصبحنا حلفاء للشيطان، والغرائز وللأمر الواقع، فأكثر أناس يخدمهم الأمر الواقع وتكاثرة الحالي اللاشرعي نحن، ألاترى أن سوقنا دائماً يبقى عامرا، خطيئة أخرى اقترفناها؛ أننا لم نعد نشارك في الخلق، إذ اقتربنا من حالة من التبطّل تُقرِّبُنا من الفئة المترفة، لم نكن امتداداً لذلك الحرفي الذي أنتج كل ذلك التراث الذي نجترُّ به، ونعتزُّ به، لم يكن التنظير والتصميم والتنفيذ آنذاك عمليات متفرقة؛ كانت تتم بعقل واحد ويد واحدة، أمّا نحن فأصبحنا معزولين عن الحياة، وأصبحنا نظيفين من وسخ الخلق الطاهر، ومعزولين عن الهمّ الحقيقي للمجتمع، ومعزولين عن نبضه العميق، نمارس عملاً مشوهاً غير حقيقي، ونقوم بحل مشاكل غير موجودة أصلاً، ونغرق في حل إشكاليات ليست تخصّ حاجات الناس، وتزيد تراكم هذا الزيف الهائل الذي يغلِّف كل شيء، ونصنع مزيداً من الحجب، ونكرِّس فوقية طبقة على الناس، ونصنع لها أصنامها، و نجسد لها تبخْتُرها وأنماطها.

من أكثر ما يميز العمل المعماري أنه يغرق بتطوير بطيء لمجموعة أفكار واستنفاد كل ممكناتها، حيث يأتي بالورقة الشفافة، ويبدأ بأكثر الأمور بساطة، ويراعي كل المعطيات؛ الموقع، والريح، والاتجاه، والمداخل، والمناظر، والوظائف والقوانين، والمساحة ..الخ، ويبدأ شكل بسيط بالولادة والنمو، ينمو ضمن إمكانياته، ينمو وحده، نحن فقط نساعد على ذلك، نتركه يتكاثر ويتراكم، وفي هذه العملية نمارس تسلّطنا وحضور قرارنا؛ الذي يحمل ترددنا، وثقتنا، وتصورنا وهاجسنا الداخلي، وفرديتنا وثقافتنا الخاصة، نحن عملية مفصولة عن كل ننسجم معه، نحن ضمن العملية نفسها منسجمين مثل عالَمْ (ESCHER) الذي فيه التفصيلة بمعزل عن محيطها سليمة ومنطقية ولكنها مجتمعة تكون مستحيلة وغير ممكنة واقعيا، ولكن بما أن الإدراك مرتبط بالحواس، والبصر يمرُ على كل تفصيلة وحدها ويفكر بها وحدها وتبدو صحيحة وحدها، ولكن عندما نمر على التفصيلة التالية نبدأ التفكير من جديد، وهكذا نرى مجموعة من التفاصيل كل واحدة وحدها، وقد نظن أن الرسمة تحمل الإمكانية أو حتى أنها حقيقية، رغم أنها مستحيلة واقعا وعقلا.

ما يعنيني الآن أن أقف عند حدود هذه العملية لأنها مهمة، كيف نترك كل العناصر تعمل معا وبنفس الوقت، وكيف ينمو الشكل ويتولَد في رحم التخمّر بين كل هذه الممكنات، كيف تكون أنت رحم لكل هذه الاختمارات وتعطيها الفرصة لتنمو وتكبر ضمن قَدَرها وما تحمل من إمكانية.

هذا فعل خلق، ولكنه قاصر، هو فعل خلق الذات بعيدة عن رحم مشروعها، ذات تعمل بقلمها وليس بيدها، الخلق لايستجيب إلا لمن يقوم به هو بنفسه، لمن يشعر بثقل الأشياء على جسده قبل روحه، هو يشارك في كل تفصيلة بدءًا من المشاركة في صنع مادته نفسها كفنان العصور السالفة، التي كان من عمق عمله وأسراره، كيمياء صناعة اللون نفسه، الفنان هو الذي كان يستولد اللون من رحم الطبيعة، من بتلات الوردة، من قلب الصخر، هو الذي كان يصنع الشيد، ويبني المشيدة، والنار المتأججة، ويذهب يبحث عن الصخر الذي يقطع منه الحجر، هو نفسه الذي كان يحمل الحجر، ويعانقه ويداعبه ويقلّبه، حتى يجد مكانه، كانت صناعة الطوب هي من لبّ عمله، فهو يتحايل على الطبيعة والجاذبية فاخترع الدائرة، وحتى لاتبقى متدحرجة ويجعلها تقاوم التثاقل، قسمها أو صنع منها القوس، فالقوس تحمل هاجس الدائرة بمعانقة الأبدية، وتلبي حاجة الطين للتماسك بالسماء، هي مرحلة وسطى بين الروح والطين، هي الإنسان قائما.

المعماري الآن معزول عن عملية الإنتاج هذه، فهو يعيش في ذلك البرج العاجي، لتفكير وهمي، وحلول وهمية تبقى على سطح المجتمع، وسطح عملياته الحقيقية، لذلك تبقى معزولة عن المجتمع بل هي عبء على المجتمع، وتصبح إحدى اختراقاته، بل هذا السلوك يُكرّس السلطة، ويكرس دورها من خلال استنساخ أشباه لها في كل موقع، لجهات تفرض على المجتمع تصورها وطموحاتها

ورؤاها رغم أنها معزوله عنه، ولا تمثله ،وليست أحد إفرازته، بل أحد أمراضه .

السلطة يعاد استنساخها في كل موقع، حتى المعماري الذي يبني للناس فضاءات ويعبّر عن أعمق ما يريدون يورطّهم بسجون، والسياسي الذي يطالب بالحرية ويحاول أن يفرضها، هو بذلك يكرّس القمع حتى وهو يطالب بالحرية، هذه فضاءات تبنى بالحوار والاشترك واحترام الزمن، فالحريه فضاء نحققه ولا نجده، ليس ثمه كنز يسمى الحرية، لأنها توتر دائم للوصول الى أقصى حركه ممكنة، وأقصى فعالية ممكنة، من خلال السعي المتواصل والإرادة المتجهة نحو التحقيق نستولد الحرية، والمعماري هو مشارك في البناء ويشارك في العملية لإعطائها الاتجاه من خلال القيام بدور أنزيم مسارع للخلق، فالبناء إرادات تلتقي وتصطلح، ونحن نُمثّل قيمها ونجسدها، ونوفر الأدوات المناسبة لذلك، وحتى يقوم البناء ينبغي أن يتصالح مع الجوار، وهكذا يبدأ المجتمع يلتقي ويتحاور من خلال بحثه عن أفضل عملية التقاء وتجاور، ليس ثمة قوانين تُفرض من أي جهة، نحن نفرض قوانينا الخاصة، وكل حالة فردية تصطلح وتحل إشكالياتها بموقعها مما يخلق ثراء هائلا، وفردية وشخصية لكل زاوية ولكل فرد، ومن هنا فالمجتمع يفرض سلطته الخاصة وقوانينه التي تعبر عن مصالحه المباشرة.

كيف سيتمكن المعماري مشاركة الناس في التصميم؟ وما هي إمكانية حوار كهذا؟ ليس بالإمكان أن تُعلِّم كل شخص كيف يصمم، وكيف يفهم شكلا تجريديا؟ إذ التجريد مصيدة الإرادة العاجزة، ليس ثمة حياة متصاعدة في السماء لا تضرب جذورها في أعماق الطين والأرض، فالتجريد يورطنا بالوهم، لأن الحياة متماسكة فاذا عزفت على أي وتر تجد أعمق ما في الحياة يتحرك، فالروح لا تخاطبنا إلا من خلال الجسد، والمادة طاقة مختزنة أو محتجزة، كما أن الجسد هو الروح متورطة في الزمان والمكان، لكننا نخاطب الروح من خلال الجسد، ونطرب الروح من خلال مداخل الجسد، لأن الكلام عن أي أهداف تجريدية سوف يُسلم الانسان للكسل، ويفقر الجسد والروح معا، فالعمل هو المصطلح المناسب لاستعماله، والجهد هو التمثيل الحقيقي، وليس ثمة إنجاز بدون أبنيه حقيقية وعلى أرض الواقع، رغم أن وجودها ليس ينبئ بالضرورة عن إنجاز حقيقي

ما نحتاج هو تفجير أو تغيير كل منظومة القيم القائمة في عالم البناء، من كيفية استخدام المادة إلى قيمة الحياة والهدف منها، إلى أنظمة البناء وكيفية التصميم، وكيف يتم الحوار بين العناصر المختلفة، إلى نظام الملكية وعلاقات الجوار، بشكل مختصر : نريد أن نغير موقفنا من الكون والحياة، ونقف في زاوية جديدة، نرى كل شيء بزاوية جديدة، لن كل تجارب المعماريين اليوم تعيد قشرة التراث الميّت، الذي ما زال يملك بريقا ووهجا، ويوفر ذلك الشعور الغبي والوهمي باحترام الذات؛ وهل هناك فرق بين هذا الموقف وموقف السلفي من التراث؟ الفكرة نفسها، وهي دفع التراث الى الحاضر شكلا، وقشرة، وحَشْره وسط هذا الكل الغريب الذي لا يملك أي هوية أو موقف، وحشر التراث بشكل مسالم ضمن قوانين أمانة عمان الكبرى، وأنظمة البناء الأردنية.

إذا ليس بالإمكان أن نعيش حالة تزوير لكي نخادع أنفسنا !! ينبغي أن نقف على ما نريد بكل صراحة ووضوح، ليس ثمة موقف ثوري لا يحمل تصور كلّي كبير لكل منظومة القيم والموقف من الحياة، أي موقف ثوري صغير محشور في زاوية إنما هو يطيل عمر الوضع القائم ويخدمة بحالة تزويريّة، لانسجام وهمي، ورضا وورع بارد، وإحضار أموات وتحريكها بشكل ميكانيكي لخداع الناس أنهم يعيشون معنا .

ويبقى السؤال الصعب والملح هو: كيف سأجعل إنسانا بسيطا يشاركني التصميم؟ هل سأتنازل عن لغتي التجريدية؟ أم هو عليه أن يتعلمها؟ هل اللغة الحسيّة المباشرة التي يستخدمها الإنسان البسيط قادرة على إيصال ما أريد؟ أم ستبقى العمارة والبناء والتصميم تخصُّ النخبة وحدها؟ كان الشخص البسيط العادي في المجتمع الجاهلي والإسلامي يفهم أي قصيدة ويشعر بها ويفهم وجه البلاغة، يشعر بذلك ويطرب ويتحرك له، كان الشاعر يتكلم لغة يفهمها الكل، كان المجتمع متماسكا، وذا اتجاه وهوية وأهداف، مجتمع عضوي، كان الشعر أحد وجوه ممارسته اليومية للتعبير عن أهدافه وطموحاته، كان يمارس اللغة بكل تلقائية، فهل ستصبح العمارة لغة الناس التي تعبر عن حاجاتهم وطموحاتهم وآمالهم وآلامهم؟